

تمظهرات اللغة في الخطاب الصوفي بين الانغلاق والانعتاق

د. عمر عروي
جامعة تيارت

ملخص:

إن قضية اللغة من القضايا الشائكة نظرا لتداخل أبعادها النفسية والاجتماعية والسياسية والثقافية والحضارية، فاللغة ترتبط بالمجتمع ارتباطا وثيقا، فهي المرآة التي تعكس كل مظاهر التغير والتحول في المجتمع رقيا كان أو انحطاطا، تحضرا كان أو تخلفا، ولما كان الخطاب الصوفي نوع من أنواع النثر العربي، وُجد في أدبنا العربي منذ القرن الثاني للهجرة، و تقوم موضوعاته على التنوع والترشيد الديني، ويكتب بلغة أدبية خاصة لها خصائصها التي تتصف بالأسلوب الأدبي غير المباشر، وتبتعد عن الأسلوب المباشر كانت دراساتي تبحث في تمظهرات القيم اللغوية على مستوى الأدب الصوفي، المفعم بالحمولات الدلالية والإيجازات اللغوية، والتنغيمات الصوتية والتركيبات النحوية، والعدولات الصرفية، والجماليات البلاغية فمن المؤكد أنه نظام متكامل، قائم بالأساس على ذلك الارتباط العضوي بين مستويات اللغة، وكل محاولة لمقاربة دلالاته تستدعي استثمار واستحضار كل مناهج التحليل الدلالي واللغوي للكشف عن مضامينها الفنية والجمالية.

مقدمة عامة:

عرف الأدب العربي أجناسا متعددة، منها الأقصوصة، والقصة القصيرة، والقصة والخطاب الصوفي، والسيرة الذاتية و...، والذي يهمنا هنا هو الخطاب الصوفي، والنص الصوفي - من حيث هو لغة مشفرة - لا يفصح عن دلالاته إلا بالقدر الذي يحجبها، يمارس على متلقيه نوعا من الطمس والحجب، فيترسب في قاعه المسكوت عنه، لذا فهو يتوشح بالغموض ويتدثر بالعمية، لا يقول إلا "المسكوت عنه، ما لا يمكن النطق به l'indisilable؛ لأنه فضاء غائم ومتموج؛ فالعرفان - من هذا المنظور - يقع في فضاء اللامنطوق" (2)، وهكذا [يتأرجح بين قطبين: ما ينطق به وما يسكت عنه، بين ما يعلن عنه وما يضمره.

وهكذا ظل الخطاب مُحْتَجِبًا في المسكوت عنه، لا يعلن إلا بقدر ما يسكت، ولا يبوح إلا من حيث يضمّر، فَيُحْجَب كثيرا من مقولاته، ويطمسها في طيات منطوقه، فيتدثر الغياب بالحضور. فلا يمكن الكشف عن الوجه الغائب فيه إلا بعد معرفة بنية نظامه، والشروط التي أنتجته، والتي يستند عليها ويتولد عنها.

فكل خطاب يفقد وهجه بقدر ما يبوح، فتتقلص شروط بقائه، وهو ما أعطى للخطاب الصوفي الحضور والامتداد في الزمن، فصار المسكوت عنه قابلا للقراءات المتعددة المختلفة باختلاف الأزمنة والثقافة والمتلقين؛ إذ النص يكون أدعى على البقاء والخلود والصمود كلما كان الخطاب أكثر إخفاء للأشياء المبحوث عنها، فيصير قابلا للانفتاح على التأويلات المتعددة التي لا تقول كلمتها الأخيرة والنهائية، بقدر ما يجعله قادرا لتقبل التأويل المتواصل، متحديا الزمن والثبات والركود، والقراءة الأحادية النهائية؛ أي الانفتاح على الآخر والاعتراف به، ومفارقة دون إلغائه.

إن التزعة الشكلية للأدب الصوفي أخذت تتناغم مع المعطيات الحديثة للنص، في التصورات والبناءات من جهة ومن جهة أخرى تعرية الدلالات المبهمة للرحالة، في استنطاق النص وتفكيك مفاهيمه.

يعتمد الأديب الصوفي إلى حد كبير على ذائقته الأدبية، في البحث عن أصول الأشياء وكشف خفايا النص، فتراه أحياناً يراهن على مستويات اللغة في الإيقاع والتشكيل، والتأويل والتفسير.

الخطاب الصوفي بين المفهوم والغرض:

تعتبر اللغة الصوفية لغة رمزية / مجازية ذات دلالات كثيرة قابلة لأكثر من تأويل تتميز بالتخيل والتمثيل والتشبيه، لهذا فهي عينة بلاغية خصبة، وإذا كانت اللغة عند سوسير نظاماً من الإشارات التي تعبر عن الأفكار فإن المتصوفة استخدموا في لغتهم واستعاراتهم إشارات ودلالات تختلف عن استعارات ودلالات الأدب، الفلسفة، السياسة... الخ، وتشكل هذه الاستعارات في تركيبها وتكوينها سياقاً خاصاً فيه مفردات وحمل متميزة فتصبح لكل مفردة دلالة ولكل جملة حجة كما يقول امبرتو ايكو (1)، ولا يمكن دراسة النص / اللغة الصوفية إلا بعد دراسة الية تكون المفردة والجملة المكونة للنص. بمعنى آخر الرجوع إلى التجربة الصوفية المكونة للغة التصوف، لأن اللغة هنا تكونت من منظور صوفي خاضع لسلسلة من الاستعدادات والممارسات الخاصة، فالنص هنا لا يتكون بعد اجتهاد عقلائي وتخطيط انشائي مسبق بل من اجتهاد / استعداد روحي وراء النظر العقلي، كما يقول ابن عربي، على ضوءه نحتاج إلى فهم التجربة الصوفي لأن الكلمة أو الشيء عندهم " لا يمثالان الدال والمدلول ... بل هما يستمدان معناهما من خلال التمثيل الثقافي " (2) وهذا التمثيل هو الذي يطابق الدال والمدلول بالكلمة والجملة، ولا نتفق مع الدكتورة سعاد الحكيم بضرورة التمييز بين التجربة الصوفية وبين التعبير عنها لأن التعبير عن التجربة هنا هو نقل التجربة تلك من عالمها الذاتي / الحسي إلى التمثيل اللغوي / التعبيري أي تطابق الذات مع اللغة والحس مع التعبير، أو كما قالت هي : العودة من الأعماق إلى الأفاق فمسيرة العودة هذه هي المجال الذي تنشأ فيه اللغة / النص، وإذا لم تكن هناك مطابقة وعلاقة بين التجربة الصوفية وبين التعبير عنها، لما ظهرت لغة خاصة بالمتصوفة التي جاءت لتمثيل واحتواء التجربة في إطار لغوي / نصي، لأنه لو كانت التجربة الصوفية خارج نطاق التعبير عنها لما تحققت امكانية القراءة " (3) فلا تتحقق الكتابة إلا لأنها تحمل في داخلها امكانية القراءة "

فكان رد الفعل الديني منصبا على هذا المحور أكثر من انصبابه على التجربة الصوفية كون الثانية استمدت شرعيتها من منظومة اسناد ديني / تأويلي (من القرآن والسنة) وتعليق الدكتورة اعلاه نسف التراث الصوفي اللغوي؛ فعلى ضوء فرضيتها تعتبر النصوص الصوفية التي بين يدينا مجرد سطور تملأ فراغاً في التاريخ؟! وإذ نقوم بدراسة الردود والانتقادات التي وجهت للمتصوفة نجد أنها تركز أولاً على أساس (اللغة / التعبير / الأسلوب / الغموض / الترميز... الخ) لأن اللغة التي يتكلمها ويكتبها المتصوفة تختلف عن لغة وكتابات غيرهم. فالآخر يطبق تمثيل ثقافي معجمي أو لغوي خارج التصوف على اللغة الصوفية وهنا تولد الفجوة ! فالجوع كلمة عربية ومفهوم اقتصادي له اسباب ومصطلح سياسي ويمكن ان يكون مجازاً ادبياً، أما عند المتصوفة (مصطلح) له أركان وأسلوب وغايه، فهم يأخذون نتيجة (الكلمة) لينطلقوا بها إلى مجال آخر فالجوع عندهم وسيلة للتقرب من الله وهو احد اركان المجاهدة له ثمار الوصول وهو من ينابيع الحكمة... الخ، فلاحظ الاختلاف في معنى الكلمة، ولهذا السبب نبه الفقهاء إلى " الاحتياط منهم واعتزال مجالسهم " (25). أما الحيايين فقد اعتبروا ان للمتصوفة حالتين مختلفتين (كرد فعل على لغتهم) حالة الصحو وحالة الغيبوبة؛ أما الأولى فهي الحالة التي يكون فيها المتصوف مسؤولاً عما يقوله، أما الثانية فلا يكون فيها مسؤولاً كونها (الحالة) لاحد عليها يوجب المحاسبة فادرجوا لغة الشطح ضمن حالات الغيبوبة، وعبر المتصوفة باصطلاحاتهم على مثل هذه الحالات بـ (الدوق، الشراب

التجريب في الخطاب الصوفي وآلياته:

إن الخطاب الصوفي التجريبي، لم يعد يُعنى بالترتيب النمطي العقلي المنسق ببداية ووسط ونهاية؛ لأن مهمته تكسير القوالب النمطية - الكلاسيكية - ، والثورة على الجمود، والتراتبية الزمنية، التي تعني عدم القابلية للتطور ولا يعني هذا تخلي الخطاب الصوفي عن الترتيب الزمني المتتابع كلية، فهي تستخدم توقعاتنا الزمنية العادية، ثم تحبطها، أو تفقدها لذا فإن الخطاب الصوفي الحدائثي تُعنى بالصيغة المكانية، معيار الكتابة الحدائثية ففيها نجد تقنية البنى والتقطيع إلى صور ولوحات مستقلة تحمل أرقاماً، تشكل مجتمعة رؤية فنية موحدة، وتعطي انطباعاً، أو موقفاً موحداً 4

إذن فرواية التجريب ترفض الماضي والحاضر لاستشراف المستقبل بكل متناقضاته لذا فإن الثورة الأسلوبية في الخطاب الصوفي على ما يسود الحقول الثقافية العربية دعوة مفتوحة لضرورة تغيير الأوعية الثقافية السائدة، واستبدالها بأخرى، حتى تتحقق شروط الوعي والفعل والتغيير (5) وبمعنى آخر فإن الخطاب الصوفي حينما تقوم على قاعدة التجريب والابتكار فهي تمس تشكيل الخطاب الصوفي إلى واقع محسوس، قوامه اللغة، وأداته السرد، والحوار المنبني على تيار الوعي المستشرف للمستقبل الممزوج بالواقع لفرض آلية تتسم بالخلق الإبداعي وتصارع عالم المغامرات الرحالة في ضوء التشكيل اللغوي، و يتمظهر التجريب أساساً في تطور الخطاب الصوفي العربية سواء على مستوى الشكل، أو طرق السرد، أو اللغة أو بنية، المكان والزمان، أو زوايا الرؤية وتقنيات معالجتها، وقد شكل التجريب عنصراً جوهرياً في تجارب كبار الرحالة عربياً وعالمياً، وما ازدهار وتعددية المشهد الرحالة الآن إلا دليلاً على حيوية أفق التجريب 6

يعتبر التجريب غاية، بل هو الفن في حد ذاته، أو وسيلة للوصول إلى إنتاج أبنية رحالة وسردية جديدة، ومن أهم مظهرات التجريب في الخطاب الرحلي:

- اللغة بشكلها العنقواني الصارخ باستخدام تقنيات شعرية في الأساس كالحرفات الصوتية عبر مونولوجات طويلة لتحسيد الحالة الشعورية 7.

- مستوى طرق السرد مثلاً لذلك ومطلعه استخدام تيار الوعي والمونولوج الداخلي المباشر وغير المباشر لتجاوز أزمة الراوي العليم وتضييق المساحة بين الوصف المسهب، وبذا تعلق قيمة ارتباط المشاعر بالأحداث.

- فضاء الزمان والمكان بحيث ينكسر التحديد القاسي لمجرى الأحداث، ويمكن التنقل بين اللحظة الآنية المعيشة والماضي البعيد أو القريب بلا تحديد.

- استخدام رهانات فنون الحكى الأخرى مثل اللغة المكثفة في القصة القصيرة أو الحوار الذي هو أساس بناء النص المسرحي 8.

- التناسل القائم على إدخال نصوص موازية للنص الأصل، سواء أكانت مأخوذة من الأثر أو من الشاهد الديني (التوراة - الإنجيل - القرآن) أو من نصوص كتاب آخرين، وزرعها داخل مبنى النص الأصلي .

يرتبط موضوع التجريب في الخطاب الصوفي، بأسئلة الهوية الإبداعية للجنس الأدبي من جهة، ومبدأ التطور والتحديد من جهة ثانية، ولا يعني ذلك بالضرورة محددات معينة يمكن أن تعتبر ثوابت في الفن الروائي تشكل هويته الأجناسية، ولما كان التجريب بذرة الإبداع فإنه لا يشترط فيه أن يكون ذا مقاييس محددة تتنازع أهواء الشد إلى الخلف أو نزعات التقدم إلى الأمام قدر حديثه واهتمامه باكتشاف مجاهل هذا الحقل السردى واختراقه في تطوير هذا التكامل المعرفي الأخاذ بين منظومة الاتصال الثلاثية (المؤلف - النص - القارئ).

عنقوان اللغة في ضوء الخطاب الصوفي:

تعتبر اللغة الصوفية لغة رمزية / مجازية ذات دلالات كثيرة قابلة لأكثر من تأويل تتميز بالتخيل والتمثيل والتشبيه، لهذا فهي عينة بلاغية خصبة، وإذا كانت اللغة عند سوسر نظاما من الإشارات التي تعبر عن الأفكار فإن المتصوفة استخدموا في لغتهم واستعاراتهم إشارات ودلالات تختلف عن استعارات ودلالات الادب، الفلسفة، السياسة... الخ، وتشكل هذه الاستعارات في تركيبها وتكوينها سياقاً خاصاً فيه مفردات وجمل متميزة فتصبح لكل مفردة دلالة ولكل جملة حجة كما يقول اميرتو ايكو (9)، ولا يمكن دراسة النص / اللغة الصوفية الا بعد دراسة الية تكون المفردة والجملة المكونة للنص. بمعنى اخر الرجوع إلى التجربة الصوفية المكونة للغة التصوف، لان اللغة هنا تكونت من منظور صوفي خاضع لسلسلة من الاستعدادات والممارسات الخاصة، فالنص هنا لا يتكون بعد اجهاد عقلاي وتخطيط انشائي مسبق بل من اجهاد / استعداد روحي وراء النظر العقلي، كما يقول ابن عربي، على ضوءه نحتاج إلى فهم التجربة الصوفي لان الكلمة او الشيء عندهم " لا يماثلان الدال والمدلول ... بل هما يستمدان معناهما من خلال التمثيل الثقافي " (10) وهذا التمثيل هو الذي يطابق الدال والمدلول بالكلمة والجملة، ولا نتفق مع الدكتورة سعاد الحكيم بضرورة التمييز بين التجربة الصوفية وبين التعبير عنها (11) لأن التعبير عن التجربة هنا هو نقل التجربة تلك من عالمها الذاتي / الحسي إلى التمثيل اللغوي / التعبيري أي تطابق الذات مع اللغة والحس مع التعبير، او كما قالت هي : العودة من الاعماق إلى الافاق فمسيرة العودة هذه هي المجال الذي تنشأ فيه اللغة / النص، واذا لم تكن هناك مطابقة وعلاقة بين التجربة الصوفية وبين التعبير عنها، لما ظهرت لغة خاصة بالمتصوفة التي جاءت لتمثيل واحتواء التجربة في اطار لغوي / نصي، لأنه لو كانت التجربة الصوفية خارج نطاق التعبير عنها لما تحققت امكانية القراءة (12) فلا تتحقق الكتابة الا لانها تحمل في داخلها امكانية القراءة "

ومن ثم يمكن القول: إن الخطاب الصوفي هو تشخيص اللغة وتصوير الذات والواقع اعتمادا على التشكيل اللغوي (13).

التشكيل اللساني في الخطاب الصوفي:

إن التشكيل اللساني في الخطاب الصوفي يحوي في حناياه المؤثرات النفسية التي دفعت الاديب إلى اختيار حزمة أساليب لغوية دون غيرها، الاختيار اللغوي محكوم بمؤثر نفسي ينبع من الوعي واللاوعي ويستطيع المتلقي أن يكشف عن الاشرافات الدلالية للنص، وتتفاوت الأساليب التي يتشكل منها النص في القدرة على رصد الاشرافات الدلالية للخطاب، فالأمر منوط بقدرة المتلقي أن يقف على المثيرات الأسلوبية ويقصد بالمستوى اللغوي النموذج الذي يحقق الناطقين به صلاتهم الاجتماعية والفكرية ويحمل الخصائص اللغوية المتعددة، والتشكيل اللغوي مفهوم واسع لا يقتصر على النظرة للجوانب التركيبية في النص بل يتجاوزه إلى الوقوف على الجوانب الصوتية والدلالية والنحوية والصرفية يقول سعيد بحيري: (إن الإفهام أو التواصل لا يتحقق إلا بوقوع المخاطب على قصد المتكلم من خلال التشكيل اللغوي الذي يضم العناصر المنطوقة، والقرائن التي تضم عناصر منطوقة وأخرى غير منطوقة) 14.

فالتشكيل اللساني للأدب الصوفي هو نمط الصور اللغوية والتشكلات الدلالية، والعلاقات البلاغية، والضمائم الصوتية، وسجلات التعبير وسماتها الأسلوبية التي تمكن الدارس من تسمية مختلف الإيقاعات السردية المتعلقة بدراسة الخطاب الصوفي من منظور تطوري تملنه أنماط متنوعة من الوعي والصوغ الحكائي المنظم لانتظام النص الحكائي.

أنماط التشكيل اللساني في الخطاب الصوفي:

إذا تأملنا النصوص الأدبية الصوفية في تطوراتها الأسلوبية واللغوية فإننا نجد لها نمطين اثنين من التصوير اللغوي على الشكل التالي:

أ - لغة تصوير مباشرة، بسيطة تغلب عليها البنية السطحية للخطاب، التي تحدد معناها الجوهرى الوحيد وهذا ما يمثله الحوار الأول والحوار الداخلي لاعتبارات واقعية، لأن الشاعر لما تصارعت بداخله أسئلة كانت مستوحاة من مرئياته الواقعية، وليست نابعة من ذاتيته الأدبية ونفسيته الشعرية، لأن الإنسان ليس في موقع شاعرية لفظية في حواراته الداخلية، وتسائلاته المنولوجية النفسية.¹⁵

ب - لغة تصوير شعرية مجازية، تحدها البنية العميقة للخطاب، ولا تعدو البنية السطحية إلا تمثيلا لمعنى من معانيها الجوهرية، وهي تعتمد على التصوير الاستعارى، والكنائى والرميز، وتفجير اللغة والشاعرية والمفارقة فضلا عن المزوجة بين المحكى السردى، والمحكى الشاعرى، ويعني هذا أن اللغة في هذا الخطاب خليط من الغنائية والسردية الدرامية، وتكثيف للصور الشعرية والنثرية واستخدام كبير للرموز والألفاظ الموحية المعبرة، وتأنيث القاموس وتليينه باللغة الشعرية النابضة، والتلوين البياني والبديعي واستخدام الكلمات المتعددة الدلالات واستثمار اللغة الشاعرية الانزياحية، والإيحائية قصد خلق الوظيفة الشعرية والجمالية الخارقة، وهذه اللغة يمثله التشكيل اللسانى الانفعالي، والتشكيل اللسانى الاخبارى، وعلى مستواها يتم تظهر اللغة التجريبية الابداعية في ظل عنفوانها الخلاق.¹⁶

خاتمة:

بناء على ماسبق، ستبقى اللغة أهم مكون جمالي وإبداعي في عملية تبليغ وتوصيل مقصدية الخطاب الصوفي في ظل تجاذب عدة مكونات بنائية للنص مثل المقصدية وفعالية الكلام والحدث والفضاء...، ولكنه لا يمكن له أن يستغنى عن اللغة في التصوير والتشكيل والبناء، وبالتالي، على صاحب الخطاب أن يكون قادرا على توليدها واستثمارها واستعمالها في أحسن الصيغ الاستعارية والمجازية: تقريراً أو تفجيهاً أو إحياءاً أو تعييناً، ولا بد أن تكون اللغة تناصبة خاضعة للتعدد الحوارى والأسلبة والتهجين الأسلوبى، ولكن في إطار مراعاة اللغة العربية الفصحى بقواعدها المعيارية وأبعادها البلاغية والجمالية. ولقد صدق عبد الملك مرتاض حينما قال: "اللغة هي أساس الجمال في العمل الإبداعي من حيث هو؛ ..."

وأخيراً، نبه إلى أهمية الإمام والاهتمام باللغة في الأدب الصوفي، التي يجب دراستها اعتماداً على مفاهيم اللسانيات النصية المعاصرة والأسلوبية الحديثة، وأن نوسع من مفاهيم ماورثناه عن البلاغة القديمة، وأن نحلل المقاطع اللغوية في إطار الوحدة الكلية للأدب الصوفي، باعتباره تميزه بخصائص أسلوبية تركز على ثنائية الانغلاق والانفتاح من خلال الرمز والغموض، مراعين تنوع أسلوبه وخطابه النوعي وألا نسقط مفاهيم الشعر على الخطاب الصوفي إلا إذا أفرغناها من محتوياتها الضيقة، وشحنها بطاقات أكثر اتساعاً وإحاطة لفهم الخطاب الصوفي وتذوق جمالياته.

1. القارئ في الحكاية ترجمة انطوان ابو زيد، اميرتوايكو، المركز الثقافي العربي 1996 ص 21.
2. استراتيجية التسمية منشورات مركز الإنماء القومي، مطاع صفدي، بيروت 1986 ص 293.
3. التصوف المقارن ص 38.
- 4 محمد بن فاضل بن مامين: نعت البدايات وتوصيف النهايات دار الفكر - بيروت ص 214
- 5 /المحتمل في الرحلة العربية إلى أوروبا وأمريكا والاتحاد السوفياتي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ سعيد علوش، نوقشت بكلية الآداب بأكادير عام 1998، ص. 83
- 6 /"الرحلة وكتب الرحلات الأوربية إلى الشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر"، مجلة الفكر العربي، العدد 32، أبريل-مايو 1983، ص. 59.
- 7 مستويات السرد في الرحلة المغربية خلال القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ أحمد الطريسي أعراب، نوقشت بكلية الآداب بالرباط عام 1995، ص. 14
- 8 الواقعي والتمثيل في الرحلة الأوربية إلى المغرب، عبد النبي ذاكر، منشورات كلية الآداب، أكادير، 1997، ص. 8.
- 9 . القارئ في الحكاية ترجمة انطوان ابو زيد، اميرتوايكو، المركز الثقافي العربي 1996 ص 21
- 10 . الالسنية علم اللغة الحديث، ميشال زكريا ، المؤسسة الجامعية للدراسات -بيروت 1983 ص 180
- 11 . المعجم الصوفي، سعاد الحكيم: ، دار ندره للطباعة والنشر 1981 ص 13
- 12 . المعنى الادبي، وليم راي، ترجمة د. يوثيل يوسف عزيز، دار المأمون - بغداد 1987 ص 25 .
- 13 /المحتمل في الرحلة العربية إلى أوروبا وأمريكا والاتحاد السوفياتي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مرجع سابق : 21/1.
- 14 المقامات، السرد والأنساق الثقافية، عبد الفتاح كيليطو، ترجمة : عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1993، ص. 127
- 15 / الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص. 31.
- 16 "الرحلة وكتب الرحلات الأوربية إلى الشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر"، مجلة الفكر العربي، العدد 32، أبريل-مايو 1983، ص. 59.